ريتشارد كيرني يكتب عن سيرة بول ريكور الفلسفية

الكتاب: بول ريكور
الكاتب: ريتشارد كيرني
الناشر: مجموعة أشغات للنشر - لندن
عدد الصفحات: 186 صفحة من القطع الكبير
المصدر: المغترب العربي

مؤلف هذا الكتاب هو البروفيسور ريتشارد كيرني أستاذ الفلسفة في الكلية الجامعية بمدينة دبلن وكلية بوسطن. وكان قد نشر سابقاً عدة كتب عن القديس أوغسطينوس، وبول ريكور، وجاك دريدا، وسواهم من الفلاسفة والمفكرين.

وفي هذا الكتاب، يتحدث المؤلف عن فلسفة بول ريكور، أحد كبار فلاسفة فرنسا. وقد لد بول ريكور في منطقة البريتاني غرب فرنسا عام 1913. وكان والده مدرس لغة انجليزية ولكنه لم يعش طويلاً ولم يُتح له أن يرى طفله إلا قليلاً. فقد انخرط في الحرب العالمية الأولى التي اندلعت عام 1914 كما هو معروف وسرعان ما قتل. ثم ماتت زوجته بعد ذلك بقليل.

فصول من سيرة فيلسوف

هكذا أصبح بول ريكور يتيم الأب والأم ولا يتذكر أنه رأى والديه أبداً. فقد ماتا وعمره سنة، أو سنة ونصف على أكثر تقدير. وعندئذ ربّته جدته وجده ثم عمته. وبعد أن كبر انخرط هو الآخر بدوره في الحرب العالمية الثانية. وكان عمره خمسة وعشرين عاماً أو أكثر قليلاً. وقد وقع في الأسر لمدة أربع سنوات لدى الألمان.

وهناك راح يشغل وقته بقراءة الفلسفة الألمانية وترجمة هوسيرل إلى الفرنسية. ومعلوم أنه كان يتقن الألمانية جيداً.

وبعد انتهاء الحرب، عاد بول ريكور إلى الحياة المدنية وأصبح أستاذاً في الثانوية لفترة قصيرة قبل أن يجد له منصباً جامعياً. وقد نشر أول كتاب له بعنوان «كارل ياسبرز ومشكلة الوجود». وكان واضحاً أنه متأثر بالفلسفة الوجودية، ولكن على الطريقة المسيحية لا على الطريقة الإلحادية. واصطدم عندئذ بسارتر وهيدغر ومفهومهما المختلف لفلسفة الوجود. وكان صراعاً فلسفياً عميقاً ومثمراً.

ثم يردف المؤلف قائلاً: وبعدئذ ترفع بول ريكور في المناصب الجامعية حتى وصل إلى مرتبة عمدة جامعة نانتير. وعاش الثورة الطلابية بكل هيجانها وثورانها عام 1968. ويقال بأن الطلبة أهانوه فوضعوا كيساً من الزبالة على رأسه! وهذه الحادثة أثرت عليه كثيراً فيما بعد.

نقول ذلك على الرغم من أنّه كان متفهّماً لمطالبهم. ولم يكن محافظاً أو يمينياً على طريقة بعض المدرّسين الآخرين.

وعلى العكس كان ينتمي إلى الحزب الاشتراكي والتيار اليساري. ولكن حماقة بعض الطلاب أدت بهم إلى ارتكاب هذا العمل البغيض. وبعدئذ غادر البروفيسور ريكور إلى جامعة لوفان في بلجيكا حيث أمضى فترة من الزمن قبل أن يهاجر إلى الولايات المتحدة. وهناك درّس الفلسفة في جامعة شيكاغو لمدة ثلاثين عاماً، أي حتى بداية التسعينات، وذلك قبل أن يتقاعد ويعود إلى فرنسا.

شهرة بعد السبعين

لقد نال بول ريكور، ما لا يقل عن ثلاثين شهادة دكتوراه فخرية من مختلف جامعات العالم بعد أن اشتهر وطبقت شهرته الآفاق. ولكن اشتهر بشكل متأخر بعد أن تجاوز السبعين لأن الساحة كانت محتلة من قبل فلاسفة البنيوية: كلود ليفي ستروس، وميشيل فوكو، وجيل دولوز، وجاك دريدا ولويس ألتوسير، وجان فرانسوا ليوتار، وآخرين. ثم يردف المؤلف قائلاً: ولكن بعد زوال الموجة البنيوية ظهرت أهمية بول ريكور وأبحاثه الرائدة في كافة المجالات. فقد أبدع في مجال الفلسفة الظاهراتية، والوجودية، وتحليل النصوص الدينية. وكان بول ريكور واسع الاطلاع إلى درجة مخيفة. فقد كان يقرأ بالألمانية والانجليزية واليونانية القديمة. عندئذ عرف الناس قيمته وعمق تفكيره.

وهذا يعني أنه اطلع على فلاسفة الألمان الكبار بلغتهم الأصلية. نذكر من بينهم: كانط، فيخته، شيسلنغ، هيغل، هيدغر، هوسيرل، كارل ياسبرز، غادامير، وآخرين عديدين. كما اطلع على الفلسفة الأنغلوساكسونية بلغتها الأصلية أيضاً، لأنه كان يحاضر بالانجليزية في جامعات أميركا وهكذا. واطلع على الفلسفة اليونانية بلغتها الأصلية أيضاً: أي فلسفة أفلاطون وأرسطو وسواهما. فقد قرأ نصوصهما بلغتها الأصلية.

معارك فكرية ومناظرات

يُقال أيضاً بأن، بول ريكور، كان قارئاً نهماً لا يشبع. فقد قرأ معظم كتب الفلسفة والتاريخ والعلوم الإنسانية. واشتبك في معارك فكرية مهمّة مع سارتر، ولاكان، وكلود ليفي ستروس. ومناظرته مع هذا الأخير مشهورة. وقد جرت على صفحات مجلة «إسبري». وكانت البنيوية في أوجها آنذاك. ولم يخرج بول ريكور منها منهزماً على الرغم من ضخامة مناظره الذي يُعتَبَرُ الأب المؤسّس للفلسفة البنيوية. ثم كرس ريكور قسماً كبيراً من حياته لدراسة مشكلة الشرفي العالم، أو في التاريخ.

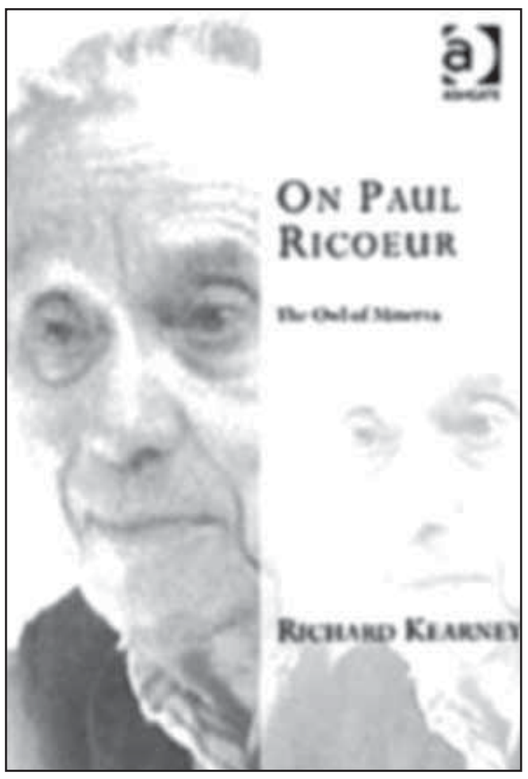

غلاف كتاب «بول ريكور»

ربما أنه عاش في القرن العشرين الذي شهد حربين عالميّتين ومجازر استعمارية وكوارث عديدة فإنه أخذ مسألة الشر على محمل الجد. ودرسها أولاً من وجهة نظر الكتب الدينية قبل أن يوسّع منظوره ويدرسها من خلال الكتب الأخرى ويستعرض آراء الفلاسفة الكبار فيها.

ولكن على الرغم من كل مظاهر الشر الموجودة في العالم فإن بول ريكور يعتقد بأن الإنسان طيب بطبعه وليس شريراً. أو قل إنه يصبح شريراً لأنه لا يدرك وجود طبقة عميقة من الطيبة والنزعة الإنسانية في داخله وأعماقه.

فالظروف القاسية قد تشوّه الإنسان وتجعله شريراً غصباً عنه. وبالتالي فينبغي أن نطرح الأمور بكل أبعادها ومن مختلف جوانبها لكي نفهمها على حقيقتها. وعلى المربّين والحكماء الكبار أن يساعدوا الإنسان على اكتشاف هذه الطيبة الداخلية من أجل تنميتها لكي تتغلب على نوازع الشر الموجودة فيه أيضاً.

نقد البنيوية

يُردف المؤلّف قائلاً: لقد انتقد بول ريكور فلاسفة البنيوية الذين سيطروا على الساحة في الستينات لأنهم أعلنوا موت الإنسان والنزعة الإنسانية. وقال ليفي ستروس بالحرف الواحد: إن مهمة العلوم الإنسانية ليست في تركيب الإنسان وإنما في صهره وانحلاله. بمعنى أن هذه العلوم تهدف إلى تشريح الإنسان من خلال تطبيق مناهج العلوم الإنسانية لعلم الألسنيات، وعلم الاجتماع، وعلم الانثربولوجيا، وعلم التحليل النفسي عليه. فكل علم من هذه العلوم يدرس أحد جوانب الإنسان ويفككه لكي يفهم بنيته وتركيبته.

وفي النهاية لا نصل إلى شيء لأن الإنسان يذوب بعد وضعه على محك هذه العلوم التشريحية والتفكيكية.

بمعنى آخر فإن ليفي ستروس يصل إلى القول بأنه لا يوجد جوهر للإنسان على عكس ما يتوهم الفلاسفة المثاليون أو الميتافيزيقيون. فالإنسان ليس إلا جملة تصرفاته وتركيبته النفسية واللغوية والسوسيولوجية والدينية.

ولكن بول ريكور على الرغم من اعترافه بأهمية المنهجية البنيوية والعلوم الإنسانية في دراسة الإنسان بشكل دقيق وصارم لا يوافق على هذه النتيجة الفلسفية التي تلغي الإنسان. ففي رأيه أن هناك جوهراً روحانياً للإنسان وليس فقط تركيبة مادية، وأن هذا الجوهر لا يمكن اختزاله إلى أي شيء آخر.

ثم اتهم ريكور ليفي ستروس بأنه سقط في مهاوي الفلسفة المادية البحتة، وهي الفلسفة التي تختزل الإنسان إلى مجرد تفاعلات فيزيولوجية أو عضوية كالحيوان. وهذا لا يجوز.

فالإنسان ليس حيواناً وليس مادة فقط وإنما هو روح أيضاً. إن فيه شيئاً يتعالى على الماديات. وهذا ما لا يريد فلاسفة المادية أن يروه.

ثم نشر بول ريكور بعدئذ كتابه عن فرويد وحاول أن يدرس مقدمته على الخارطة الفلسفية. وهذا ما أزعج جاك لاكان كثيراً لأنه كان يعتبر فرويد بمثابة ملكيته الخاصة! وزاد من انزعاجه نجاح كتاب ريكور في المكتبات واهتمام الناس به.

ورأى زعيم المدرسة الفرنسية للتحليل النفسي في كل هذه الضجة خطراً عليه. فسارع إلى اتهام ريكور بأنه سرق أفكاره وضمنها بين دفتي هذا الكتاب. وعندئذ انتهت الصداقة بين الرجلين على الرغم من أن لاكان كان معجباً ببول ريكور في البداية. وهو الذي ألح عليه لكي يكتب عن التحليل النفسي من وجهة نظر فلسفية. ولكن عندما رأى مدى عمق كتابه ونجاحه خاف منه وغار على سمعته الشخصية. وهذا شيء وارد في أوساط المثقفين. فهم يغارون كثيراً من بعضهم البعض. والمثقفون الفرنسيون ليسوا استثناء من القاعدة.

المصالحة بين الدين والفلسفة

كان بول ريكور قد خاض سابقاً معركة فكرية ضد جان بول سارتر ووجوديته الملحدة.

ومعلوم أن سارتر سيطر على الساحة الثقافية الفرنسية بعد الحرب العالمية الثانية مباشرة. وكان قد ألقى محاضرة عصماء بعنوان «الوجودية هي فلسفة إنسانية». ولكن ريكور كان ينتمي إلى التيار الآخر في الوجودية: أي التيار المؤمن. وهو التيار الذي بلوره سابقاً كير كيغارد، وغابرييل مارسيل، وكارل ياسبرز وآخرون.

وهذا التيار يحاول إقامة المصالحة بين الدين والفلسفة ولا يستسلم لإلحاد الحداثة الذي يميل إلى تعميم نفسه على كل شيء.

ولهذا السبب فإن بول ريكور حاول تجديد علم اللاهوت المسيحي عن طريق تطبيق مناهج العلوم الحديثة على النصوص الدينية وبخاصة الإنجيل. وقد ساهم في تجديد علم التاويل الديني عن طريق تطبيق المنهج الألسني والسيميائي – الدلالي على النصوص المسيحية الكبرى.

وخرج بنتائج ممتازة بعد هذا التطبيق. وبالتالي فإن بول ريكور لم يرفض البنيوية كمنهج في البحث وتحليل النصوص الأدبية أو الدينية من الداخل، وإنما رفضها كفلسفة عدمية أو مادية بحتة.

المعنى يكمل المبنى

فالبنيوية أثبتت فعاليتها في تشريح النص من الداخل والكشف عن بنيته اللغوية والأسلوبية والبلاغية. ولهذا السبب فإن بول ريكور يقدرها ويحترمها. ولكنه يطالبها بألا تتجاوز حدودها وصلاحياتها.

فبعد أن نشبع من دراسة النص بنيوياً وشكلانياً تنتهي مهمة هذه المنهجية لكي تبتدىء مهمة الكشف عن المعنى والمغزى والدلالة العميقة للنص. وهذا ما لا تهتم به المنهجية البنيوية لأنه ليس من اختصاصها على ما تقول.

ثم يخلص المؤلف إلى القول: وأخيراً فإن هذا الفيلسوف الفرنسي الكبير جدد من فهمنا لأشياء عديدة كالفلسفة الظاهراتية، وعلم التاويل أو تفسير النصوص المقدسة، وكذلك دراسة الأساطير، والأيديولوجيات، والطوباويات. والواقع أنه كان مفكراً حكيماً لا يلقي الكلام على عواهنه كما يفعل الكثيرون من المهووسين بالشهرة أو بالصرعات الدارجة. وكان بول ريكور مختصاً بتاريخ الفلسفة وأحد كبار المطلعين عليه.

وقد كرس دراسات عميقة لأرسطو وأفلاطون وديكارت وكانط والفلسفة المثالية الألمانية بشكل عام. ومن أهم كتبه التي ستبقى بعد موته نذكر أطروحته لدكتوراه الدولة عن الإرادي وغير الإرادي في الأعمال البشرية، كما نذكر كتابه الكبير عن رمزانية الشر، وكذلك كتابه عن فرويد، وكتابه عن مناهج التاويل في العالم المعاصر والصراعات الدائرة بينها.

ولا ينبغي أن ننسى كتابه الذي يحمل العنوان التالي «من النص إلى المحاربة» هذا بالإضافة إلى رائعته عن الزمن والتاريخ والنسيان.

لقد جدد هذا الفيلسوف مناهج البحث التاريخي أيضاً. وساعد المؤرّخين على فهم أعمالهم بشكل مختلف. ومعلوم أن فرنسا اشتهرت بأهم مدرسة في علم التاريخ المعاصر: مدرسة الحوليات. وبالتالي فقد صال بول ريكور وجال في كافة الميادين والاختصاصات. وكان رائداً في معظمها إن لم يكن فيها كلها.

«فرنسا تحت الأنظار»
قراءة في ولادة ديمقراطية الرأي العام

الكتاب: فرنسا تحت الأنظار: تاريخ الإعلام السياسي منذ 1930 حتى اليوم
الكاتب: كريستيان ديلبورت
الناشر: فلاماريون - باريس 2007
عدد الصفحات: 493 صفحة من القطع المتوسط

من مواليد عام 1958 ويعمل أستاذا في جامعة فرساي لمادة التاريخ المعاصر، وقد قام كريستيان ديلبورت، مؤلف هذا الكتاب، منذ ما يزيد على 25 عاما. يجمع المطبوعات والدعايات والمنشورات والإعلانات السياسية وصور المرشحين والرسوم والصحف ومختلف الوثائق الانتخابية. وشكّلت هذه المطبوعات كلها مادة في كتبه العديدة التي نشرها منذ عدة سنوات حول «الإعلام السياسي» في فرنسا.

ويعمل المؤلف أيضا مديرا لـ«مركز التاريخ الثقافي للمجتمعات المعاصرة» ومديرا أيضا لمجلة «زمن الإعلام».

وعنوان هذه المجلة هو عنوان أحد الكتب التي أصدرها المؤلف إلى جانب أعمال أخرى من بينها «الصور والسياسة في فرنسا خلال القرن العشرين»، و«تاريخ وسائل الإعلام في فرنسا من الحرب العالمية الأولى حتى اليوم»، و«صحفيو فرنسا: 1880/ 1990»، و«ولادة مهنة وبناؤها»، و«المثقفون والسياسة»... الخ.

هذا الكتاب الجديد يخص «تاريخ الإعلام السياسي في فرنسا منذ عام 1930 وحتى اليوم» كما يدل عنوانه الفرعي، أو عما يمكن اعتباره، ولادة ديمقراطية الرأي العام. وذلك ليس بمعنى استطلاعات الرأي السائدة اليوم والمساهمة في عمليات البث التلفزيوني الكثيرة هذه الأيام في فرنسا، والتي لعبت، وتلعب أيضا، دورا مهما في توجيه الرأي العام فحسب. ولكن أيضا بالمعنى الذي يتم فيه اعتبار الإعلام السياسي قديما قدم السياسة نفسها.

انزعوا من أمامي هذا

ينطلق المؤلف في تحليلاته من حادثة قديمة جرت عام 1927 مع رئيس الحكومة الفرنسية آنذاك ريمون بوانكاريه، الذي كان يستعد لإلقاء كلمة أمام عدد من كبار شخصيات الجمهورية الفرنسية. ويومها قال «انزعوا من أمامي هذا».

و«هذا» المقصود كان «مايكروفون» تابعا للإذاعة الفرنسية. فقد كان «بوانكاريه»، كما يبدو، يريد أن يقول كلاما في السياسة إنما للخاصّة وليس للعامة.

كانت الإذاعة في عشرينات القرن الماضي وسيلة الإعلام السياسي بامتياز إلى جانب الصحافة المكتوبة. لكن دورها تضاءل كثيرا مع بروز التلفزيون، ذلك أن الصورة «قلبت» عمليا آلية عمل المجتمعات المعاصرة كما أن الديمقراطية شهدت وسائل جديدة للتعبير عن نفسها بواسطة تجدد أدوات الإعلام والأخبار التي أصبحت وسيلة بيد الدولة من أجل السيطرة على الرأي العام وتوجيهه.

كما أن مختلف المجموعات السياسية لجأت إلى استخدام الصورة ووسائل الإعلام من أجل تحسين صورتها عبر الدعاية أو عبر النقاشات العامة. وفي المحصلة فرضت الصورة نفسها بوصفها «الأداة الأولى للإعلام السياسي» عبر «اجتياحها» للمجال العام. وأصبحت في الوقت نفسه «رهانا أساسيا» بالنسبة للمسؤولين السياسيين.

إن مؤلف هذا الكتاب يكرّس قسما هاما من صفحاته للحديث عن استخدام الصورة في ظل الجمهورية الفرنسية الخامسة التي أرسى الجنرال شارل ديغول أسسها عام 1958. ويتم التأكيد أن الجنرال نفسه كان قد تلقى «تعليمات» من خبراء الصورة عن كيفية التصرّف أمام العدسات والتوجّه للفرنسيين عبر الشاشة الصغيرة.

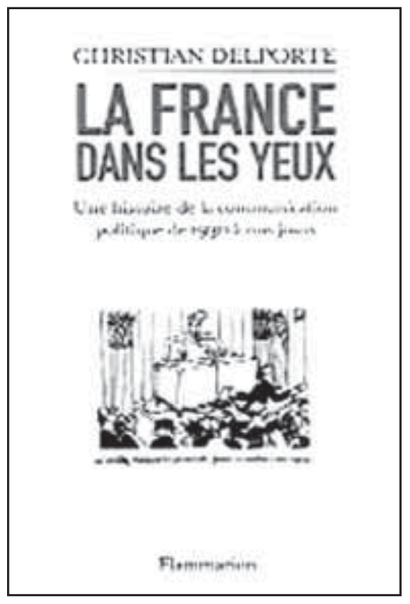

غلاف كتاب «فرنسا تحت الأنظار...»

التواصل الإعلامي

بهذا المعنى أصبح من المطلوب أن يمتلك رجل السياسة قدرة كبيرة على «التواصل الإعلامي» كشرط للنجاح. وما يؤكده المؤلف هو أن الإمكانات التي يقدمها التلفزيون إلى جانب الصور واستخدامها في الإعلانات على اللوحات الموزعة في الشوارع والطرقات قد غيّرت كثيرا من «طرق الإقناع السياسي»، إذ وضعت الصورة في قلب «الإعلام السياسي»، كما يرى أن السمات الخاصة للنظام الذي أرساه الجنرال ديغول قد غذت ونمّت ظاهرة سيادة الصورة.

هكذا كان على العالم السياسي أن يتأقلم مع الأشكال الجديدة لـ«التواصل» مع المواطن، وأصبح عليه أن يعتمد على الخبرات المؤهّلة في هذا الميدان، أو مع أخصائيّي الإعلام والإعلان.

بتعبير آخر أصبح لـ«التسويق السياسي» طرقه الخاصة. وينقل المؤلف عن مقال نشرته صحيفة لوموند بمناسبة الحملة الانتخابية الرئاسية في فرنسا عام 1965 ما مُفاده أن الأمر يتعلق بـ«معرض تأخذ فيه ملامح الوجوه القيمة الأولى».

صناعة الاستعراض السياسي

تتم الإشارة إلى أن الجنرال ديغول احتكر لنفسه «الصورة السياسية المتلفزة» منذ عودته إلى السلطة. هكذا ما بين عام 1959، أي بعد تأسيسه الجمهورية الخامسة وعام 1965 تدخّل رسميا 41 مرة منها 12 مرة في إطار مؤتمرات صحفية. وكان قد تعلّم بسرعة فن مخاطبة الفرنسيين «دون القراءة من ورقة – وجها لوجه – ودون نظارات». لقد كان «مثل الملك وهو يتحدث من قصر الاليزيه».

وضمن هذا السياق من اكتساب الصورة أهمية متزايدة يتم الحديث فيه عن «صناعة الاستعراض السياسي» حيث أصبح الرجل السياسي يجسد بالأحرى «شخصية» إعلامية وإعلانية أكثر مما يجسد «مشروعا» سياسيا بينما أخذ المواطن العادي دور المتفرج. ويتم التأكيد هنا أن سنوات السبعينات الماضية شكّلت مرحلة مهمة في تعزيز مكانة «الصورة السياسية» ليصبح التلفزيون نهائيا في قلب اللعبة السياسية.

لا سيما وأنه قد أصبح من حق المعارضة أن تعبّر من خلاله عن آرائها بانتظام. وكان الرئيس فاليري جيسكار ديستان قد أرسى تقاليد إجراء مناظرات سياسية على الشاشة الصغيرة. وذلك في نفس الوقت الذي دخل فيه التلفزيون إلى جميع المنازل تقريبا.

وتشير إحصائية تعود إلى عام 1973 أن 45 بالمائة من الفرنسيين يؤكدون على أن المناظرات التلفزيونية مفيدة من أجل «امتلاك حجج للنقاش» بينما اعتبر 74 بالمائة منهم أنها مهمة من أجل «رؤية كيف يكون رجال السياسة». ثم إن التلفزيون يقدم فرصة فريدة بالنسبة للمرشحين عن أحزاب صغيرة للتعريف بأنفسهم لدى الجمهور العريض.

ثقافة الإعلان السياسي

اعتبارا من نهاية عقد السبعينات أصبح رجال السياسة الفرنسيون يحرصون على «ظهورهم» في النشرات الإخبارية على أساس أنها تستقطب أكبر عدد من المشاهدين. لكن اعتبارا من بداية عقد الثمانينات دخل عنصر جديد على «الإعلام السياسي» تمثّل في «الإعلان السياسي».

هكذا مثلا كان رجل الإعلان الفرنسي الشهير جاك سيغيلا أحد أسباب فوز فرانسوا ميتيران بالرئاسة في ذلك العام عبر رفع شعار «القوة الهادئة» على صور ميتيران الانتخابية. هكذا عرفت سنوات الثمانينات تعميم اللجوء إلى خبراء الإعلان من أجل دعم رجال السياسة. وهكذا طلب جاك شيراك من «جان ميشيل غودار» شريك جاك سيغيلا، أن يقوم بتحضير حملاته الانتخابية اعتبارا من عام 1986.

وبالموازاة مع تعاظم قيمة الصورة في الحملات الانتخابية زادت أيضا الميزانيات المكرّسة لهذه الحملات. ففي عام 1973 كانت ميزانية المرشحين الرئيسيين للانتخابات الرئاسية هي حوالي 40 مليون فرنك فرنسي وأصبحت 150 مليونا عام 1981 ثم 260 مليونا عام 1988.

وفي جميع هذه الحملات كان هناك نصيب هام لـ«الإعلانات الدعائية». وتتم الإشارة هنا إلى أن «الدعاية السياسية» عرفت زيادة كبيرة في جميع الديمقراطيات الغربية. ففي الولايات المتحدة الأميركية مثلا تحظى الإعلانات التلفزيونية «السياسية» بحصة الأسد في الحملات الانتخابية، بينما تحظى الصحافة المكتوبة بهذه الحصة في بريطانيا.

وأمام الزحف الكبير لـ«الإعلان السياسي» شهدت فرنسا في مطلع سنوات التسعينات تشريعات تحدد سقفا لتمويل النشاطات السياسية، بحيث لا تزيد ميزانية حملة المرشح في الدولة الانتخابية الرئاسية الأولى على 120 مليون فرنك للمرشح وعن 160 في الدورة الانتخابية الثانية بالنسبة للمرشحين الاثنين الفائزين في الأولى. ولا تزال التشريعات الصادرة سارية المفعول حتى اليوم.

ما يؤكده المؤلف أيضا هو أن «الإعلام السياسي» له جذوره التاريخية التي تصل حتى الحقب الأولى الحضارية، فملوك بلاد ما بين النهرين مثلا مارسوا «الإعلام السياسي»، ربما دون قصد، عندما حفروا أخبار انتصاراتهم على ألوح حجرية أو برونزية. إنهم كانوا، بكل الحالات، يريدون التأثير على محكوميهم.

واليونانيون القدماء اخترعوا «الديمقراطية» والدعاية الانتخابية. وعندما انبثقت الدولة الحديثة في أوروبا عند نهايات القرون الوسطى سعت «الدعاية الملكية» إلى التواصل مع «الرعايا». ومع الثورة الفرنسية الكبرى دخل مفهوم «الجماهير» إلى ساحة الفعل السياسي.

ولا شك في أن اختيار المؤلف لعام 1930 كبداية للحقبة التي يدرسها، يعود إلى واقع أن تلك الفترة شهدت العصر الذهبي للإذاعة باعتبارها السلاح السياسي الأقوى آنذاك. هذا ما فهمته السلطة السياسية آنذاك أيضا فأرادت فرض «احتكارها» لتلك الأداة الجبارة.

وكانت الحملة الانتخابية لعام 1936 التي فازت فيها الجبهة الشعبية (اليسارية) قد جرت أولا على «أمواج الأثير» ليبدأ معها ما يسميه المؤلف بـ«عصر مستخدمي الإعلام». ثم إن الجنرال شارل ديغول والفرنسيون عامة لا ينسون أبدا أنه بفضل نداء 18 يونيو 1940 الذي أطلقه الجنرال من إذاعة بي.بي.سي في لندن بدأت مسيرة تحرير فرنسا من الاحتلال النازي. ولكن أيضا بفضل ذلك النداء «دخل الجنرال إلى التاريخ».

في المحصلة هذا الكتاب يؤرخ فيه مؤلفه لمسيرة تحول الديمقراطية الفرنسية إلى ديمقراطية يشكل الرأي العام، عمادها الرئيسي وتحظى «السلطة الرابعة» لوسائل الإعلام ومفهوم «التسويق السياسي» بالدور المركزي فيها، لا سيما وأنهما إلى حد كبير وراء «صناعة الرؤساء».

عالم الكتب والمجلات

الكاتب أمام قرّائه

❑ حسونة المصباحي

في عددها الصادر يوم الجمعة 22 حزيران/ يونيو 2007، نقلت جريدة «لوموند» الفرنسية أن المحكمة بصدد مقاضاة مواطنين من قرية «لوسو» الصغيرة بتهمة الاعتداء بالضرب على الكاتب بيار جورد الذي ينتمي للقرية المذكورة، وعنها ألّف كتابا حمل عنوان «البلد المفقود».

وقد جاء في حيثيات القضية ما يلي: يوم 21 يوليو/ تموز 2005، وصل بيار جورد إلى قريته التي فيها ولد ونشأ، لقضاء عطلته السنوية في البيت العائلي القديم بصحبة عائلته. وكانت سيّارته تقترب من البيت لما برز رجل وامرأة، وراحا يشتُمانه، ناعتين ابنيه الأسمرين بـ«عرب قذرين». ثم لم يلبث أن جاء مواطنون آخرون من نفس القرية، وجميعهم اعتدوا بالضرب على الكاتب مسبّبين له أضرارا بدنية خطيرة.

وكان بيار جورد قد ألف عام 2003، كتابا سماه «البلد المفقود». وفيه يصف قرية «لوسو» التي ولد فيها قائلا «نحن لا نصل إليها إلا بصعوبة، بل قد نضيع في الطريق، وليس فيها أي شيء نقوم به، أو نراه، إنها بلد مفقود، كما يقال. وما أظن أن هناك تعبيرا أبلغ من هذا التعبير (...). وأنا منذ البداية، وبغباء، أحاول أن أحتفظ به».

وعند صدوره، لاقى الكتاب إقبالا من قبل القراء، واهتماما من قبل النقاد. فقد استطاع مؤلفه، بيار جورد، أن يرسم صورة حية للقرية التي عاش فيها آباؤه وأجداده منذ زمن طويل. وقد وصفه البعض بأنه يشبه كثيرا الكاتب جان جيونو الذي اهتم في جميع الروايات التي كتبها بالريف، في الجنوب الفرنسي حيث يكثر الرعاة الجبليون، واللصوص، وقصص الحب السرية.

وفي كتابه يتحدث بيار جورد عن الضيعات التي لها رائحة الحليب المحمض، والأقمشة المتعفنة. وهو يتذكر دائما ابني عمه جوزيف وليون، وابنتي عمه بارت وليونتين، وجولاته في الحقول أثناء الصيف، وهو يحتفظ بالكثير من أسرار العائلة، خصوصا تلك المتعلّقة بقصص الحب.

وقد ولدت فكرة الكتاب لدى بيار جورد، عند زيارته إلى عائلة من عائلات القرية كانت ابنتها «لوسي» البالغة من العمر 12 عاما، تحتضر بعد صراع طويل مع مرض عضال. وقد وجد هناك عددا كبيرا من أهل القرية.

وأثناء تأليفه للكتاب، استحضر الأحياء والأموات. وعند صدور الكتاب ثارت ثائرة أهل قرية «لوسو»، واعتبروا ما ورد فيه إهانة لهم، وسخرية لاذعة من حياتهم، ومن عاداتهم وتقاليدهم.

غير أن بيار جورد رد على غضبهم قائلا «لقد غيرت كثيرا في كل ما يتصل بالفترات الزمنية، وبالعلاقات العائلية، وحتى بالأماكن. لذا لا يجب اعتبار كتابي تجسيدا واقعيا، وأنا معتز بأن أكون من لوسو». غير أن هذا الأمر لم يخفّف من غضب سكان القرية.

والحقيقة أن علاقة الكاتب بقرائه أمر قد لا يخلو أحيانا من التعقيد. فهو إما محبوب أو مكروه أو مُدان من قبلهم. وعندما نشر الروائي الإيرلندي الكبير جيمس جويس رائعته «يوليسيس» في العشرينات من القرن الماضي والتي وصف فيها بدقة متناهية أحداث يوم 16 حزيران/ يونيو 1904 في دبلن، غضب كثير من سكان المدينة واتهموه بأنه أساء لهم إساءة بالغة.

وثمة رجل دخل مكتبه في وسط دبلن، وأعلن أمام الملأ وبصوت عال، أنه على استعداد تام لقتل جيمس جويس، إن وجده أمامه ذات يوم. وعندما سمع صاحب «يوليسيس» ذلك، اشتدّ فزعه، وأقسم أنه لن يعود أبدا إلى ايرلندا. وكان الأمر كذلك وهكذا مات بعيدا عن وطنه في شهر فبراير/ شباط 1941.

والحقيقة أن العمل الفني الأصيل عادة ما يكون مربكا ليس فقط لأجهزة الرقابة، سياسية كانت أم أخلاقية أم دينية، وإنما لأولئك الذين يحاول الكشف عن جوانب خفية من حياة مع من كان على علاقة وطيدة بهم، أو مع من كانت تربطهم صلات عائلية أو غيرها. وعندما يعاين هؤلاء ذلك، تثور ثائرتهم، وعندئذ تصبح علاقتهم بالكاتب علاقة عدائية. وقد ثارت الطبقة الارستقراطية في بريطانيا في العشرينات من القرن الماضي على الكاتب الكبير د.هـ. لورانس عندما أصدر روايته الشهيرة «عشيق الليدي شاترلي»، التي تحدّث فيها عن علاقة حبّ بين امرأة أرستقراطية متزوّجة من أرستقراطي مشلول، وحارس غابة... فما كان من د.هـ. لورانس إلا أن ترك بريطانيا، ليعيش سنوات طويلة بعيدا عنها، ولم يعد إليها إلا عندما هدأ غضب الطبقة الأرستقراطية...

لن يصعد الزنوج إلى الجنّة

الكتاب: لن يصعد الزنوج إلى الجنّة أبداً
الكاتب: تانيلا بوني
الناشر: Le serpent à plumes - باريس
عدد الصفحات: 205 صفحات
المصدر: لوموند ديبلوماتيك

❑ عرض: نابو سين

لن يصعد الزنوج إلى الجنّة أبداً... هذا الحكم القاسي ليس مجرّد مزاح. إنه أيضاً عنوان كتاب هو أحدث روايات الكاتبة تانيلاّ بوني من ساحل العاج، والذي يأخذ القارىء على حين غرّة. القصّة: في ردهة مطار واغادوغو (بوركينا فاسو)، رجلٌ أبيض يبدو ناشزاً ببزّته البيضاء، يناجي نفسه ويعلن «أن الزنوج لن يذهبوا إلى الجنّة! الرجل بالقميص الفضفاض المطرّز والحذاء الأنيق والكلام الصريح ليس زنجياً. ولا يمكنه أن يكون حتى بموجب طفرة مباشرة». حكمه كان بمنزلة اعتداء، خاصة على الراوية التي غالباً ما تطارد «الأفكار الشائعة التي تثير هذا القدر من المشاعر». بهذه الطريقة، سيدخل جوناس أميديه ديوسيراي، المعروف بـ«ديو» بين أصدقائه، إلى حياة تلك التي تروي لنا الأحداث. يجلس «ديو» إلى جانبها في الطائرة ويروي لها الجزء الذي يمكن البوح به من حياته، أما الجزء الآخر فستكتشفه عندما تقع صدفة على مخطوطة تحكي القصة الحقيقية لجوناس أميديه. من يحمل هذا الاسم لن تكون حياته عادية.

هذا الناشر المقيم بين فرنسا وإفريقيا عرف ولادة ثانية في الثانية والعشرين من عمره في كورهوغو، في شمال ساحل العاج. فحين كان يعمل هناك مستشاراً تربوياً، اغتصب إحدى تلميذاته، سالي، وهي في الثانية عشرة من العمر؛ وستولد ويندي من هذا الفعل البربري. حول هذا الشعور بالذنب، وعلاقاته اللاحقة مع النساء، و«مهنته» كـ«زنجيّ» (مؤدي الخدمات) في إفريقيا، تنسج الرواية مسار حياة «ديو». أراد، من خلال دار النشر، أن يعطي الكلام لمن لا صوت لهم، أي الأفارقة. من جهة أخرى، فهو قلم أو مستشار وزير، وتلعب الروائية هنا على المعنى المزدوج لكلمة زنجي بالفرنسيّة. جوناس أميديه ديوسيراي عامل متعدد الوجوه، يستورد أيضاً منتجات إفريقية إلى فرنسا. وهو يستغل كل شيء من دون العرفان بالجميل لما يُقدّم له من خدمات وامتيازات. ومع تفحّص المخطوطة، تضيء الراوية، وهي شابة إفريقية، على العلاقات المعقّدة والتي ما تزال تتّسم بالعنف لمرحلة ما بعد الاستعمار؛ وبفضل تحقيقها حول حياة «ديو»، وخصوصاً عبر بعض معارفه من النساء، تعيد الراوية لفت انتباه القارىء إلى نهب إفريقيا والفقر الناجم عن ذلك. وبالرغم من بيئة منكوبة، تقدم الروائية مديحاً للمرأة السوداء، خصوصاً لنسائها اللواتي ينجحن بالرغم من الصدمات الكبيرة. فبعد اغتصابها من قبل جوناس أميديه ومعاناتها من خلال زواجَين، تتحول سالي بالرغم من ذلك إلى امرأة ثريّة ومعروفة في أوساط الأعمال. إيريس، المرأة الشجاعة الثانية، التي كانت لمدّة من الزمن عشيقة ديوسيراي، تجاوزت وضعها عن طريق مهنة بيع الأسماك. ويندي تحوّلت إلى مبتكرة ماهرة ولو أنها أقصيت، غالباً بسبب لون بشرتها غير المحدد تماماً، بين الأسود والأبيض. مع أن هذه المصائر تبرهن على أن إفريقيا ليست جحيماً أبدياً وإجبارياً لسكانها، لا تتمكن الرواية من تفادي ما يُسمّى خفراً اليوم «الأزمة العاجية». العاجيّة... «إنها قنبلة، أليس كذلك؟ لغمٌ قد ينفجر في أي وقت ليُغرق البلاد في فوضى مستديمة. الوقائع تتحدّث عن ذلك أفضل من الكلمات... تذكّر من ابتدعها، في المختبر المعروف للجامعة الوطنية. لم يخفوا نواياهم. لكن الشعب العادي تحمّس لها، رأى فيها ناراً في القشّ لتسلية المتفرجين، والترويج عن الشباب والأطفال». أزمة ولدت حصّتها من «المترحّلين» و«الزنوج المُقتلعين»... أشخاصٌ تُنفى عنهم أي هويّة وأي صفة إنسانية. وفيما يتجاوز الموضوعات الراهنة بامتياز في الأزمة العاجية، الهجرة ومصير إفريقيا المنكوبة، تعالج رواية «الزنوج لن يذهبوا إلى الجنّة» العلاقات الإنسانية، ولا يمكن أن تترك أي قارىء على الحياد. تانيلا بوني هي من ساحل العاج وهي أستاذة الفلسفة في الجامعة، وشاعرة وروائية وكاتبة قصص قصيرة ومؤلفة كتب للشبيبة.